مجلة منتدى الأستاذ

المجلد: 18 العدد: 01 السنة: ديسمبر 2022 الصفحات 144- 158

وحي الصّوان؛ دراسة في الأيقونة الحجرية عند إبراهيم الكوني

The Flint Revelation: a Study in the Stone Iconography of Ibrahim al-Koni

دليلة زغودي[1]،*

[1] المركز الجامعي مغنية/ تلمسان (الجزائر)، daliazegh1982@gmail.com

تاريخ الإرسال: 2022 /04/27 تاريخ القبول: 2022 /11/21

الكلمات المفتاحية:

الحجر؛

الأيقونة؛

المقدس؛

الصحراء؛

القمر؛

الملخص:

يسير هذا المقال في ركاب الوقفات التأملية المستكشفة لأسرار الأيقونية الحجرية التي تطالعنا في العديد من سرود إبراهيم الكوني الصحراوية، وإن كان يُنيخ عند قصة "الربة الحجرية" بالتّحديد، لما اكتنزته من حمولات ثقافية ودينية وميثولوجية تعتصر – فنيا وجماليا– ميراثا محليا وإنسانيا ضاربا في تقديس الأحجار وتبجيلها، بعد أن يلقيه في مهب الأسئلة الأنطلوجية الكبرى المنثورة في تيه متخيله الصحراوي، ويحدّد به التخوم السرابية لخارطة الترحال لدى شعب الطوارق؛ شبحي الوجود.

Keywords:
stone,
Iconic,
holy,
the desert,
moon,

ABSTRACT:

This paper explores the Iconic Stone Secrets in Ibrahim al-Koni's narrative writing. The writer's story of the "Stone lord» was taken as a reference because of its cultural, religious and mythology loads regarded as artistic and aesthetic local heritage. Being a master of the stones and their reverence, the writer has thrown them in the context of the great Antilles questions raised in his desert imagination and defines the mirage border of the Tuareg travel map, which has a ghostly presence.

* دليلة زغودي

"يرقد في الحجارة الاسم الأول للأرض، ولا نهائية الدليل" –إدموند جابيس –

مقدّمة:

بين صحراء رملية لعوب تتنكّر لوجهها كل ساعة معفية على ملامح لبستها منذ حين، تتعاور جنباتها ذيولُ السراب الساخرة.. ويتّخذ القبليُّ، من حبيباتها الذرورية، أُهْيَةً مبتذلة يعاقرها بمزاج مَلول.. وبين صحراء صخرية تقف في وجه العاديات معْلماً يقهر برسوخه ضروب العفاء مكتفيا، إزاء معابثات الأنواء، بإسدال جلال الثبات الوقور شماتةً واستهانةً؛ وَجَدَ الصحراوي –المحكوم بالرحيل– في الصّخر وتده، معلّقا عليه، ما بين غدوّه الأبدي والرّواح ، غنائم رحلته، راسما على صفحة ذاكرته الصّوانية خارطة بقائه المستحيلة، محمّلا إياه عبء حفظ الوصايا التي ما كان للصفحة الرملية إلا أن تبدّدها مع رُسُلِ الريح مِزَقا، ويضرب عن ذكرها الزمان صفحاً فتنسى: "ومن غير الحجر الصارم ، الصبور، الخالد، يستطيع أن يتلقى الأمانة ويدافع عن الرمز ويحفظ وصايا الأسلاف من غدر الزمان وقساوة القبلي؟" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 08).

إنها إحدى المراقي التي يعلّق عليها ابن الصحراء الشريد "إبراهيم الكوني"؛ المجبول من طينة الظعن، عشقه وشغفه، ويحفر على صلد قرطاسها إشارات رحلاته الجمالية التأملية، مستعيدا سيرتها القديمة مع القداسة وما كان لها من شأن في الهداية والتدليل. سنعمل في هذه الدراسة على تقصيها واقتناص لُمَحها وإيحاءاتها الدلالية، معولين على أمانة لحمة الصخر في صون الودائع وما فُطرت عليه من صبر وصمود.

. 1سردية الحجر؛ احتضان المقدس:

كانت المناطق الصحراوية الموئل الأول للأحجار المقدسة، اتّخذت فيها رمزا لحضور الألوهة وسبيلا للتواصل معها عند إنسان الشرق القديم بدء من الألف الحادي عشر قبل الميلاد (السواح، عبادة الأحجار عند الساميين وأصل الحجر الأسود ، 2021، صفحة 62)، ولا يستبعد أن تكون ماثلة في الوجود كتجسيد مادي لأرواح الأسلاف الغابرين، وسندا حسيّا لوجودهم فيما وراء الطبيعة (سيرج، 1992، صفحة 366)؛ إذ "يكفي أن يكون الحجر مستخدما في يد الأسلاف كي يتخذه الله مأوى ويصبح حجرا كريما" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 155)، ثم إن مثوله في الطبيعة كعنصر بدائي يختزن مفاهيم القوة والصلابة والجَلد، أقره في أصل خيالات البقاء والخلود؛ "فالحجر الذي يوحي بالثبات والاستقرار والدوام وعدم التغير، كان إشارة للوجود السرمدي في مقابل وجود الإنسان المتغير والزائل" (السواح، عبادة الأحجار عند الساميين وأصل الحجر الأسود ، 2021، صفحة 62)، كما أن سقوطها من أجرام سماوية وكواكب يحفظ لها أصلها السماوي المقدّس، دون أن يعيذها، أحيانا، من وصمة العار الملحقة بسيرة السقوط الأول المستعادة في كل سقوط الحجري (Caillois.Roger, 27 mai 2016)، ومن بين باقي العناصر، يتفرد الحجر بخواص الصلابة والقسوة؛ ما يهبه القدرة على حفظ ما يتشبث بأديمه الصلب من آثار وبصمات؛ " ومن غير الألواح المكابرة ، الصموتة ، الجامدة، الحزينة، وهبت الاحتفاظ بالأسرار: أسرار الآلهة، وأسرار البشر، فصارت بذلك الصفحات القاسية من كتاب الصحراء؟ " (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 08)

أثقلت الحجارة الصلبة عند البدائيين بحمولة المقدّس (سيرج، 1992، صفحة 366)، وعلى أساس الحجر المقدّس قامت المعابد والأقداس عند الكنعانيين ومن توارث عنهم تقديس الحجارة؛ من فينيقيين وقرطاجنيين.. عدا عمن تاخمهم أو متَّ إليهم بصلات الجوار. وعلى هذا الحجر قام مفهوم "بيت إيل" أو "بيت الله"؛ "فعندما كان يعقوب على سفر صادف مكانا وبات هناك وأخذ من حجارة المكان واحدا ووضعه تحت رأسه، فتجلى له الربّ في الحلم واقفا على رأس سلم منصوبة بين الأرض والسماء، فأفاق يعقوب من نومه وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه وأقامه عمودا وصبّ عليه زيتا ودعاه، بيت الله" (2012، الصفحات 120–121)، وكان يتصدر المقامَ حجرٌ مقدّس شاع منه عند العرب مثلا؛ حجر اللّات، وحجر العزّى، وحجر مناة، وحجر الخلصة، وحجر الصفا، وحجر المروة... وكان الحجر الأسود أشهرها، وعليه شاد إبراهيم الكعبة؛ بيت الله.

حمل الصّخر –على صلابته وقسوته – معاني الرحمة؛ فمنه تتفجر ينابيع الماء العذب، وهو يؤوي في تجاويفه من يستجير به من رمضاء القفر وقرّه، ويقدح من صلبه الصّلد بقبس الشّرر نورا ونارا، وربما حمله للنقيضين يكون قد خوّله لتصدر المشهد القدسي.

2. سِفْر الحجر؛ العصمة من التيه:

لتعظيم الحجارة عند الساميين من أهل الصحراء تاريخ عريق جدا تم، خلاله، تشريف الرّجمات، وعوملت معالم الصحراء –في كنفه– بكل تبجيل (السواح، موسوعة تاريخ الأديان: الزرادشتية، المانوية، اليهودية ، المسيحية، 2018، صفحة 100). والحجر، الذي اصطفته الآلهة مستودعا لأسرارها، وتلقّف البدوي نصوصه عبر الألواح الحجرية وحياً سماويا جمعه الكتاب المقدس"آنهي" (الكتاب المقدس عند الطوارق، وهو كتاب ضائع) (الكوني، عدوس السرى، 2012، صفحة 15)، وحده المؤهل لصونها من الضياع والتّلف؛ "اختلفت الروايات بشأن الطريقة التي تلقى فيها الصحراوي هذا الدستور الخالد، ولكن الحكماء ما لبثوا أن اتفقوا كعادتهم وتوصّلوا إلى إجماع يقول إن الصيغة الأولى للنصوص وجدت منقوشة بيد الآلهة على ألواح مصقولة من الحجارة" (الكوني، ديوان النثر البري ، 1991، صفحة 77).تعيدنا الألواح الحجرية المزبورة بالنصوص الإلهية (الكوني، ديوان النثر البري ، 1991، صفحة 78)، ثيولوجياً، إلى لوحي الحجر اللّذين نقشت عليهما "وصايا" الربّ لليهود في شكل ميثاق بين موسى وربه؛ "صعد موسى إلى الجبل تاركا شعبه أسفله، ليناجي يهوه، وعاد بعد بضعة أيام حاملا وصية يهوه لبني إسرائيل. تلخصت هذه المشيئة بـ"وصايا" نقشت على لوحين من الحجر" (فكري، سفر الخروج الإصحاح 34، صفحة 96).

يضعنا في إطار هذا الميراث الديني، ما ابتدرت به قصة "الربةّ الحجرية" وهي تستدرك فصلا مهمّا من سيرة "الدرويش موسى (اسم موسى أيضا، وهو إحدى الشخصيات الأساسية) "في رواية "المجوس": "تحت الحجر الغامض، القديم، الذي يحفظ سيرة الآلهة ويكتم في صدره تاريخ الصحراء، رأى موسى خيال الربة الحجرية لأول مرة. كانت تقف مكابرة في مقامها الخالد.." (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 07)وكانت نظرتها :" نظرة تحمل نداء من الماضي المجهول، وتنقله إلى الخلف عبر الأجيال" (الكوني، الربة الحجرية؛

الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 08) إلى المنابع الأولى والصافية للشرائع السماوية، وإلى البدء الموسّم بالصدق والقوة والبراءة.

ولكن أهل الصحراء استعاضوا عن دوام الحجر الصامد الأمين بِرُقُوق الجلد الحيّ المعرَّضة للتلف والفناء، وقامروا بالنصوص الأصلية المتمسكة بجلد الحجارة الخالد، حين رهنوها بنسيج خلايا عضوية آيلة للتآكل و" نقلوا النصوص، نصوص آنهي (علما أن "آنهي" يعني في ترجمته من لغة أهل الصحراء" المبكّر" أو "الأرومة"؛ بما يتساوق مع إيقاع البدايات والأصول الأولى) (الكوني، نداء ما كان بعيدا، 2009، صفحة 313) من لغة الآلهة إلى لغة البشر، من إشارات السماء إلى رموز "تيفيناغ" من الغموض إلى الوضوح، من الحجر إلى رقع الجلد" (الكوني، ديوان النثر البري ، 1991، صفحة 79). وكان من البيّن أن المسافة بين الأصل والنسخة كبيرة، وأنه لا فكاك من مآل "التّيه" المقدّر على كل من تساهل مع "وصايا" الألواح الحجرية، واقترف إثم النسيان؛ فـ"عندما نسي لغة النصوص الحجرية المنقولة فقد الدليل للحياة، وكتب عليه الشقاء والضياع في صحراء أبدية بلا حدود، كان المنفى أول قصاص أصاب الصحراوي بعد أن نسي وفقد الصلة بالنصوص الإلهية الأصلية" (الكوني، ديوان النثر البري ، 1991، صفحة 80).

3 .البعث في الحجر:

إذا كانت فصول التّيه قد ابتدرت بسيرة مغادرة الحجر، فإن طريق الهدى والوجد مقترنة، لا محالة، بالرّجعى؛ بالالتحام مجدّدا بحميمية البازيلت المقدسة؛ والالتحاق بحرم الألوهية مرة أخرى؛ بمقامات ارتضتها الآلهة وانتقتها لحمل سِفْرها السماوي. وهو ما تقوم عليه تفاصيل قصة "الربة الحجرية "؛ قصة الحسناء" تامدّورت" التي رفعت إلى مقام الألوهة، بمباركة من أسلاف الخفاء، بعد سحبها من هيئة اللّحم والدّم البشرية، والرقيّ بها إلى معارج الأيقونية الحجرية المخوّلة باستضافة الكائنات الربانية.

4. هبوط البدر السماوي:

تقدِّم قصة "الربة الحجرية" الحسناء "تامدّورت" بصفات الإلهة القمرية "تانس" أو "تانيت" (إلهة الحب والخصب والتناسل عند قدماء الليبيين)؛ فتبدو المقابل الأرضي للكوكب الفضّي المتلألئ في عليائه؛ والمنافِسة البشرية للإلهة القمرية، المتداولتين، معا، على عرش الضياء فهي؛ "أنثى يقول لها رجال العشيرة عند غياب البدر "اكشفي وجهك يا تامدّورت لأننا نريد أن نحلب نوقنا والبدر غاب"، فتكشف تامدورت عن وجهها وتضيء لهم ظلمات الليالي الظلماء" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 11) (كان هذا نداء الربة "تانس" في أسطورة الطوارق الملحمية المعروفة بـ" تانس وأطلانطس"، ما يضعنا مباشرة أمام معتقد تقديس القمر المنتسب لعبادة الإلهة الأم). تتزوج تامدّورت من ابن عمتها "بوخا" الذي "عاش مع الأم في تادرارت السماوية متنقلا بين المغاور والمراعي والمقاطع الحجرية الجليلة" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 10)، ويكون القصد من هذا الزواج أن تبوء تامدورت بالدور الأرضي لحوّاء في إعمار الأرض وضمان استمرار الحياة؛ خصوصا وأن "بوخا" هو الخَلَف الوحيد لأبيه الذي قضى في مطاردة الودّان الإلهي المحرّم؛

بالسقوط من قمة جبلية أين " دفع الثمن لأنه أراد أن ينقذ ذريته من الجوع [...] نال الأب الجزاء ولكنه أنقذ النسل من الزّوال" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 10).

يمثل هذا الزّواج نوعا من الامتثال لناموس البقاء الأرضي الذي ينصّ على أنه" لا يخرج المخلوق من متاهة الضياع إلا إذا عثر على لوح الطين الضائع، فتّش عن أنثاك، ففي حضنها تجد الخلاص" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 19)، وما كان على الابن إلاّ " أن يحرص على تنظيم الشعائر ويقترن بالبدر السماوي إذا شاء أن ينال رضى الأم ويفوز بمباركة الآباء والأسلاف" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 12)، لينتهي المطاف بـ"البدر السماوي" إلى التمرغ على حضيض عرش ترابي؛ بعد أن " تأتي الأنثى [يستعمل الكوني لفظ "الأنثى" في الحديث عن تامدورت وليس المرأة؛ في استدعاء واضح لمساقات رمزية الألوهة المؤنثة، وتحاش بيّن لذكر المرأة –بحمولاتها الجندرية– إلا في الحديث العام عن النساء] من تاسيلي، ويأتي الرجل من تادرارت، تلتقي أنثى أنجبتها الأرض الصحراوية بذكر أنجبته الأرض الصحراوية، يتّحد كوز الطين بكوز الطين ويذهبان ليجتمعا في الأصل، من الاجتماع يولد النّسل، ويتواصل الأصل، تمدّد بوخا على سريره الترابي الجليل، صلّب يديه على صدره وحبس الأنفاس" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 19).

ترافق هذا القران الأرضي طقوسٌ جنائزية تستعرض مظاهر الحزن والأسى؛ "فقد غنّت الصبايا الأناشيد الجنائزية الصحراوية [...] احتفالا بالقران الذي سيعقد بين طينين: طين تاسيلي، وطين تادرارت [...] وتجمّع الصبيان ورقصوا بقلوبهم حزنا على اغترابهم الأبدي وخروجهم القديم من "واو" [...] يهيمن الاكتئاب، وبرغم ذلك تولول ألسن الصبايا بالزغاريد العاتية فترقص قلوب المهاري وتبتهج قلوب الفرسان [...]" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، الصفحات 20–21).

كما تسرد سيرة الكائن في الوجود، بهذه المناسبة الفارقة، وتستعاد أشجان رحلته المتأرجحة بين موت وميلاد، رقصاً بالمهاري؛ "أعطوا الإشارة بحلول لحظة الوداع الأبدي، سيمضي رسول الغروب إلى الشرق حاملا سؤاله الفاجع عن سرّ الحياة والميلاد ، ويمضي فارس الشروق إلى الغرب حاملا سؤاله الفاجع عن سرّ الممات والزوال" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 21).

أما موكب زفاف العروس[السماوية] إلى عريسها فلم يكن أقل حزنا؛ اتخذ فيه رتل النسوة المرافقات للعروس هيئة النادبات في الجنائز وهن يشيعن الميت إلى لحده؛ فقد "تسكعت النسوة بخطو جنائزي، يتلحفن بالأردية السوداء، ويرتلن تميمة مجوسية ورثنها عن جداتهن الجنيات" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 21). إنه تمثيل رمزي لوضعية الموت التي تشترطها طقوس التأهيل بقصد العبور إلى الوضعية الجديدة والولادة فيها؛ "كن ينشدن بعض المقاطع ويرددنها حتى يصل النداء المرتل، الموروث، الفاجع، إلى القمم ليسمعه الأسلاف الهاجعون في مقابرهم المستديرة على سفوح المرتفعات" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 24).

كان العرس قادحا لذاكرة المنايا؛ امتزجت بهجته بأتراح الفراق وجزع الموت بشكل يستثير فكرة ازدواج شعائر سيدة القمر (عشتار، تانيت..) ذات الوجهين؛ الأبيض والأسود الرامزين إلى الحياة والموت (السواح، ، لغز عشتار- الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، 2002، صفحة 209)، وهي تنوس في دورة البزوغ والأفول بين قطبي الحياة والموت، كذلك يكون في اكتمال البدر دلائل شروعه في التناقص ...ومن ثم الأفول، لأن هذا القران [الاكتمالي] الذي يؤذن بانبثاق حياة جديدة في الأولاد، إنما يحمل في طياته أيضا نذر النهاية بالنسبة للوالدين. ثم إنه ازدواج يتساوق مع المساقات التأهيلية التي يستحضر فيها الموت رمزيا بغرض تخطي الوضعية الدنيوية-التي يحملها الاقتران بالزوج- إلى الوضعية الروحية المقدسة (إلياد، المقدّس والدّنيوي، 2018، صفحة 177). التي بلغها الأسلاف بعبورهم إلى الضفة المقابلة للحياة.

5. البدر الأرضي في حرم الخباء:

يظهر تنازع على البدر بين السماء والخباء في المقاطع المخصّصة لحفل القران، فقد أفل بدر العراء، فيما سطع نوره في الخباء عند دخول تامدورت خيمة زوجها. وقد ظهر الصراع على "تامدورت" بين أهل الخفاء وأهل الصحراء؛ منذ بدء مراسيم الزفاف، ممثلين من جهة، بالوصيّ الذي تولى شعائر الاحتجاب الطقسي للعريس "آكّا" وهو خسّ متحدر من سلالة الجنّ، وبين "بوخا" العريس الذي غلب على دمه عرق الإنس (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 62) من جهة أخرى. فـ"حماية الأصل من الزّوال لن يتم إلا بالالتحام بالأنثى، تلك كانت وصية أهل الخفاء أيضا" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 13) وليست وصية أهل الصحراء وحدهم؛ إذ لا بد من وجود أنثى "قمرية" تبوء بهذا الدور في شرع الفريقين.

وعندما "كشفت له "تامدورت" عن وجهها الذي ينافس بدر السماء فأضاءت ظلمات الحرم، غاب في الجسد اللّيلي الشهي، فلم يسمع كيف استمر نشيج آلهة الليل يجرح الليل الصحراوي البكر تنفيذا لمشيئة الأسلاف، وفزعا من مجاهل الولادة الجديدة" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 26). استفرد بوخا بالبدر المكنّى عنه بـ "الجسد الليلي الشهي"، واستأثر به لنفسه مختصا بنوره وضيائه عندما احتجزه في خباء الزوجية، فاحتجب البدر وانحصر سناه في الخباء، بينما تعالى في حلكة الظلمة خارجا " نشيج آلهة الليل " ناعية فجيعة الخسوف.

إن هذا القران "الأرضي" الذي استمرت طقوسه ستة أيام لم يغادر فيها القرين؛ الموكل بدور الخلق، خباء العرس إلا فجر اليوم السابع؛ "خرج من حبس الحرم وكسر قيد شعائر استمرت سبعة أيام" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 26) بعد أن "استولى على إلهة صحراوية تضيء الظلمات بوجهها المدوّر" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 26).كان، فيها، بوخا وبعد أن أتم الأيام المعلومات للخلق طقسياً؛ وهي "ستة أيام"، وأيقن أنه أنزل البدر من سمائه إلى أرض الصحراء وتوفرت له الأسباب "كي يضع بذرة مقدّسة بها ينقذ الأصل من الانقراض ويبعث في الصحراء الحياة؟ كيف لا يفرح وقد استجاب لنداء الأم، ونفذ لها وصية الأسلاف ؟" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992،

صفحة 26)، وما عليه بعد أن قام بالمطلوب إلا أن يرتاح من عناء الخلق، ويستوي على عرش الخليقة مطمئنا لنتاج حرثه.

تستلهم « الأيام الستة » في شعائر الزواج، الميقات المذكور في الكتب السماوية عن زمن الخلق، فمن القرآن؛ قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّام ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ (الأعراف، الآية: 54). وقد ورد في سفر التكوين إذ "أَكْمَلَ اللهُ فِي اليَوْمِ السَّادِسِ أَعْمَالَه التِي عَمِلَهَا وَاسْتَرَاحَ فِي الْيَوْمِ السَّابِعِ مِنْ جَمِيعِ أَعْمَالِهِ التِي عَمِلَهَا، وبَارَكَ اللهُ اليَوْمَ السَّابِعَ وَقَدَّسَهُ لِأَنَّهُ فِيهِ اسْتَرَاحَ مِنْ جَمِيعِ أَعْمَالِهِ التِي ابْتَدَأَ اللهُ أَنْ يَعْمَلَهَا" (2012، صفحة 25)

ولكن "بوخا" لم ينتبه لأخطاء طقسية وقع فيها سهوا، ولم يدر أن اللعنة تلاحق قرانه، وأنه حرم نفسه وأسلافه السلالة الأرضية – البشرية المرتقبة والمنذورة لبادية العراء إلا حينما فقد بدره [الأرضي] المقتنص من عليائه، وانسحب بوجهه الوضاء من بين حجب خبائه.

يمتثل بوخا لوصية الأجداد في ضرورة الاقتران بالأنثى، ولكنه "يخالف تعاليم الأسلاف" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 29) ويتنكر لنواميسهم عندما يتراخى في الاحتراز ويركن للاسترخاء ويقترف إثم "النسيان"؛ المنهي عنه في الكتاب المفقود "آنهي"، المسؤول عن جرّ لعنة التيه على أمته؛ فقد نسي سلاحه عند خروجه من الخباء فجر الزفاف، والتقى بوالد العروس في الخلاء في الصبيحة ذاتها وهو ما تستنكره أعراف الطوارق، وأخيرا هتك شرائع الأسلاف حينما خرج بعروسه من قبيلة أهلها قبل أن تتم حولا متناسيا تحذيرات الأعراف؛ و"عندما نسي لغة النصوص الحجرية المنقولة فقد الدليل للحياة" (الكوني، ديوان النثر البري ، 1991، صفحة 80)وأضاع السلالة المرتقبة.

لم يكن بوخا إذاً يستحق تامدورت لأنه لم يحفظ فيها ما أوصى به الأسلاف أن يحفظ، حين تساهل في إعادة إنتاج الأعمال التي قام بها الأصول، بالتكرار (إلياد، المقدّس والدّنيوي، 2018، صفحة 175)عن طريق المحاكاة الشعائرية، وقد كانت الأنثى القمرية إحدى هذه الوصايا إن لم تكن أهمها على الإطلاق، أليست معبودة الأسلاف وأمهم الكبرى؟ فكيف يتهاون معها؟

6. التخليد في الحجارة:

تبدأ سردية خلق آخر في طرف "الخفاء" بطقوس مغايرة، لم يكن "آكّا" مدفوعا إليها بإيعاز بشري ولا بهدف أرضي دنيوي، وإنما كان صادعا بها لوحي جاءه من بعد اعتزال في العراء الموحش "أياما"؛ "ولا يعلم عما إذا كان الملاك هو الذي نزل من السماوات، أم أن الوحي الغامض جاءه من صخرة "متخندوش" الممزقة بالإشارات السماوية" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 40)، فقد أودعت السماء الصخرَ وحيها وانتقته لحمل الوصايا من أجل تنفيذ المشيئة والشروع في ممارسة طقوس التخليد والإبقاء التي حرم منها أهل الباديات واستأثر بها أهل الخافيات، والتحق بالأصل السماوي، ذلك الفرع الصخري المنتقى لحمل " النصوص الإلهية" (الكوني، ديوان النثر البري ، 1991، صفحة 78) وقد وردت مقامات السمو والتعالي مرارا في

فصول الخلق الحجري داخل المغارة الجبلية بما يمنح لآكا وضعية مستعلية؛ إذ "يمثل "الأعلى" بعدا لا يبلغه الإنسان كما هو، إنه حق تمتلكه القوى والموجودات الفوق–بشرية من يصعد مرتقيا درجات معبد، أو سلم طقوسي يقود إلى السماء، يكف عن كونه إنسانا: إنه يشارك، بكيفية أو بأخرى. في وضعية فوق –بشرية" (إلياد، المقدّس والدّنيوي، 2018، صفحة 111).

7. الزفاف الحجري:

تمت طقوس هذا الزفاف [الحجري]، هي الأخرى، بمباركة الأسلاف وباستعمال رفاتهم، واتباع وصاياهم، بالإضافة إلى انتهاج شرائعهم المقدسة التي كان لها الصفوان حفيظا؛ فـ"بائس وضائع وخاسر من بقي في حدود البدن رهينا ورضي بحدود الصحراء معقلا، ولم يجرّب أن يخرج إلى السرّ في الخفاء، لأن الخلود ليس في الصّحراء، لكنه حكر على الخفاء، فالخفاء وحده يملك السر الأول" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 34). وإذا كان الزفاف [البدني] قد تم في كنف خباء جلدي، فإن طقوس الزفاف [الحجري] المخلِّد، قد احتضنتها مغارة صخرية، "ذهب إلى المغارة المقدسة كانت عالية الجدران، مخطوطة بالرموز أيضا، بشرة الصلصال بلون اللحم، بلون الدم، بلون البشر، بشرتها تناسب اللون البشري المغارة المقدسة استعارت لون بشرتها من لون البشر" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 41)، ولا يخفى ما تحمله المغارة المقدسة من دلالات دينية تستدعي معها مقامات جليلة؛ من قبيل الوحي الذي نزل على الرسول محمد (ص) للمرة الأولى في غار حراء، وما كان من أمر ولادة مريم العذراء للمسيح داخل مغارة (السواح، السواح، فراس: مغامرة العقل الأولى؛ دراسة في الأسطورة – سوريا– بلاد الرافدين، 1996، صفحة 361)، ناهيك عما كانت تتمتع به الكهوف من تقديس عند الكثير من الشعوب القديمة؛ وقد اتخذت منها فضاء تكريس ومقرا لأداء طقوس العبور (سيرج، 1992، صفحة 369) على غرار كهف سكالوريا (scaloria) المقدس جنوب إيطاليا الذي كان يحتضن "شعائر الجنائز أو التعميد المرتبطة بفكرة الانبعاث والتجدد" (السواح، موسوعة تاريخ الأديان: الشعوب البدائية والعصر الحجري، 2017، صفحة 369)ولعل ما أورده ابن الكلبي من أن "آدم عليه السلام لما مات، جعله بنو شيث بن آدم في مغارة في الجبل الذي أهبط عليه ...وكان بنو شيث يأتون جسد آدم في المغارة فيعظمونه ويترحمون عليه.." (الكلبي، 1965، صفحة 50) لمما يتكشف عن ضرب هذه القدسية في القدم واتصالها بفكرة العود على البدء، أو الأوب إلى الفردوس المفقود.

8. سرية الخلق:

يتم التركيز، في وصف المغارة، على الدّم واللّحم الصلصالي خامة البدن البشري على نحو يحيلنا على الرّحم وغشائه وعلى الجنين وقد تشبّث، في مراحله الأولى، بجدار الرحم علقةً. وليس هذا بجديد ما دام البشر قديما قد مثّلوا المغاور ببطون النساء الخصبة (سيرج، 1992، صفحة 369) تشترك المغاور؛ وهي أحشاء الجبال الصخرية مع الأرحام في السرية، في الإسرار، في العتمة التي تحتضن البذرة الأولى لكل حياة [إنسانية وحيوانية ونباتية]. نظرا لأن "الخلق فعل سريّ يسمو على الأفهام، ولذا فإنه يصدر عن الليل والظلمة، لا عن النهار والنور، والعتم هو الرحم

البدئي الذي حبل بالكون وأنجبه" (السواح، ، لغز عشتار– الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، 2002، صفحة 78).

واصل "آكا" شعائر خلقه حتى "تبدت الملامح الأولية لمخلوق نافس البدر في بهائه، وأضاء الظلمات بنور وجهه، وبهر الصحراء بجماله ووقعت قلوب الرعاة في أسره إلى الأبد" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 41)، تتضح صفات الإلهة القمرية بجلاء من هذا الوصف، كما أن القمر صديق العتمة ورفيقها يتبادلان الضوء والعتم بألفة؛ فيشتبكان ويتلاحمان دون احتكار أو سلطة؛ " فالنور والظلام لا يتنافران عند سيدة القمر بل يتجاذبان، وعندها يلتقيان" (السواح، ، لغز عشتار– الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، 2002، صفحة 85)، بعكس الشمس؛ التي تزيح العتمة وتبددها كليا عند طلوعها، وتغيب بوجهها وهي تنسحب من العرش السماوي كلية؛ تاركة الساحة للظلمة بالكامل. لهذا اتشح الأنثوي بالسرية والغموض فانبعث نوره في ظلمة المغارة بعذوبة، وأنار بوجهه المدوّر عتمة "الخباء" ونشر ضوءه في نسيج ظلمته دون تسلط أو إبهار، وأين يمكن أن يوجد قمر إن لم يكن في ظلمة مغارة أو في حلكة ليل؟ فهو كائن الظلمات اللّطيف والودود. والجُرم الذي يجمع في رمزيته بين الخصب والموت والظلمة والنور.. واستحق من ثمّ أن يكون وسيطا بين العالم الأعلى والعالم الأدنى (سيرج، 1992، صفحة 383)

9. المنقذ من الفناء:

ليس الدور التناسلي بعاصم للأنثى من الفناء، ووحدها الهيئة الحجرية المقدسة من تكفل لها البقاء، و"هذه الاستمرارية في الحجارة تمثل هذه القفزة العمياء في اللامرئي لإرادة لا نظير لها للاستمرار وإنجاز الدورة. من الجامد إلى الجامد" (جابيس، 2015، صفحة 39) . وعوضا عن الاحتفاء البشري بالأنثى عن طريق الإفناء بالنسل الفاني، يقع الاحتفاء الحجري برفعها إلى مقام الألوهية الخالد فـ" الضياع كتب على كل شيء في الصحراء ما لم يحفر في الحجر" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 41) إذ يمثل ميلاد تامدورت في الحجر ميلاد خلود وبقاء يبتعث تاريخا مغرقا في القدم للألوهة المؤنثة المجسدة بالحجارة (على غرار حجر اللات، وحجر العزى وحجر مناة، وحجر عشيرة...)، للأنثى القديمة التي استأثرت بعبادات الإنسان الأولى؛ وقد "عبدت الأم القمرية من خلال رمز الكتلة الحجرية. فالصخر الذي هو رمز الأرض هو في الوقت نفسه رمز للقمر. وكان لون الحجر الذي تعبد فيه عشتار يعكس طورها المنير أو طورها المظلم" (السواح، ، لغز عشتار– الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، 2002، صفحة 89)

10. قُدْس الأنثى القمرية الخالدة:

كان "آكا" في مغارته المقدسة شبيها بنبيّ مبشّر يرعى ميلاد دين، أو هو أقرب ما يكون إلى كاهن يمارس طقوس تنصيب إله جديد، ويحوّل المكان المستضيف للإلهة إلى معبد، أو مقام ديني سنيّ يحفه الجلال؛ و"حتى الجدار المقدس لم يخف سعادته باحتواء جسد الربة لأنه يعرف أنه سيزداد قداسة بهذا الامتلاك وسيفوز بامتياز جديد سيجعل منه معبدا خالدا " (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 41)

مرّ فعل الخلق بثلاث مراحل- تحاكي الثلاثيات الثلاثة للحمل- تعلقت المرحلة الأولى بجدار المغارة، وكل ما فيها يتصل بانغراس الكائنة الألوهية المتخلِّقة، في جدار الصلد المقدّس: "أفرغ الجسد الحجري الصلد من اللحم الميت وهيّأ مكانا للّحم البشري، للحم الإلهي الذي أوحت له الآلهة أن يبثّه في الجدار الصخري المقدس، تفضّأ الحجر وتهيّأ لاحتضان الجسد الخالد" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 41). حدث هذا الفعل الإخصابي بمباركة الأسلاف –الساكنة أرواحهم في الحجارة- ورعايتهم؛ فبعدما رآه آكا من "التجاوب الحميم" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 41) للحجر وترحيبه باستقبال الإلهة أحسّ بأن " روح الأسلاف تستنفر الآلهة وتستعطفها لتعطي "تامدورت" الحياة، وتبارك لها ميلادا في الحجر" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 41).

أما المرحلة الثانية "من وحيه السريّ" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 42)، فقد تمثّلت في طلاء المحفورة الحجرية بالطين الأحمر أو "تيفتست"(وهي نوع من المغر الأحمر الذي استعملته الشعوب قديما في رسوماتها على الأحجار)؛ وهو طين تضمّه قبور الأجداد الغابرين، يماثل الدم بلونه الأحمر، وجَلْبه من قبور الموتى، يمنحه دلالة الانتساب للأسلاف والتّحدّر من أرومتهم الجسدية، فآكا، وبعد أن أتم المرحلة الأولى وفرغ من نقش ملامح الربّة الجديدة على الحجر، راح يزوّدها بعنصر الحياة الأول؛ حين "ذهب وبحث عن دم التكوين، دم الأسلاف المسفوح في بطن الصحراء... أين الدم المقدس الذي يجري في عروق الأرض؟ أين التربة المخضّبة بأنفاس الآلهة التي تحرسها روح الأسلاف؟ أين التعويذة التي تأخذ الأحياء إذا غابت وتعيد الأموات إذا أقبلت؟" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 42) .يستلهم الكوني هنا تقليدا عرفته الشعوب القديمة في عصر النياندرتال؛ كانت فيه أجساد الموتى تطلى بالمغرة الحمراء الشبيهة بالدم؛ عنصر الحياة في إشارة إلى رمزية البعث بعد الموت (السواح، عبادة الأحجار عند الساميين وأصل الحجر الأسود ، 2021، صفحة 39). وبعد طواف وبحث واستعطاف لخميرة البعث المقدسة "في الوادي عند حضيض الجبل، عثر في قبر قديم على كنز فريد من التراب المقدس" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 42)

أما المرحلة الثالثة والنهائية من الخلق الحجري، فقد خرجت من طور الإسرار المتصل بأحشاء المغارة وما جاورها من قبور قديمة، لتنتقل إلى خباء تامدّورت الزوجي، حيث بقي "آكا" يتوسل الأنثى البشرية –نظيرة تانس- أن تخرج من خبائها وتكشف عن وجهها ثلاث ليال مستعملا النداء القديم المأثور عن الأسطورة القمرية؛ " اكشفي عن وجهك يا "تانس" وأضيئي الصحراء كي أحلب النوق". إن الليالي الثلاث تستدعي هنا الفترة التي يقضيها القمر مختفيا قبل أن يولد من جديد في شكل هلال ضمن دورة جديدة (ولعل في وصف تامدورت "بالمرأة الخفية" في مقطع لاحق ما يدعم هذا التخريج) (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس، 1992، صفحة 44)، ولا يخفى ما يوحي به وروده في هذا المقام الحديّ من إشارة إلى أفول البدر في هذه الدورة وابتعاثه في دورة جديدة داخل المغارة الصخرية.

"ولكن تامدورت التي جرّبت العين وعرفت قدرة الخلق على امتصاص الدم بالنظر [...] أبت أن تخرج إلى العراء لتضيء للساحر العاشق الصحراء ليحلب النوق" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 43) وبعد طول نداء وتوسل وتفجع؛ وبناء على طلب من قرينها البشري "بوخا" –بعد أن انفطر قلبه شفقة على المتوسّل، خرجت للساحر، وكشفت له عن وجهها، ثم تولّى بنفسه تعرية جسد الربة؛ ألوهي الجمال. ينطوي المقبوس الآنف على مماهاة بين تامدورت والكوكب المعبود عند الشعوب الأمومية، وهل يسفر القمر عن جسده الفضي المنير إلا ليلا؟ "أخيرا خرجت. وقفت في عراء الظلمات، وأنصتت لسكون الأزل في ليل الصحراء الخالدة، ورفعت عن وجهها الحجاب، انبثق فيض الضوء الذي استعار نوره من الأقمار والشموس والكواكب وانسكب على الصحراء الملفوفة في الظلمة، مزق عنها اللحاف الأسود فتبدى جسد الصحراء وتعرى" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 44). وكما يليق بكاهن في معبد الإلهة الأم، وأمام عظمتها ، فإن آكا " سجد على الأرض أما القامة المعبودة، قبّل الأرض ومرّغ جبهته طويلا في التراب" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 44)

لم تكن توسلات الساحر "آكا" التي استمرت لليال ثلاث وراء خروج تامدورت من الخفاء وانكشافها في ليل البيداء، وإنما خرجت بعد إلحاح زوجها عليها بالخروج في طلب حُمِلَ مَحْمَل التخلي؛ إزاءه "كتمت المرأة الخفية غيظها على البعل (في هذا المقطع يطفو البعد الجندري؛ حين تصبح تامدورت امرأة وبوخا بعلا يأمر وينهى، وتنفذ مشيئته وسلطته بها). لم تقل له أنه باعها. لم تذكر له أنه تنازل عنها للراعي الشقي. الراعي الذي لا يعرف أحد غيرها ما يحمله في صدره من أسرار" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 44). إن الخباء وهو المعقل الإنسي للأنثى القمرية الذي تُحْجَب فيه عمّن سوى زوجها يكون بخروجها منه قد خسر رهانه مع العراء، فآن بذلك للكوكب المؤنث أن يعود إلى سمائه، ويتدفق على العيون فيض ضيائه، وهي تكون بأفولها من الخباء، قد "خرجت إلى الظلمات فناح "بوخا" وخرج يبحث عنها في الكهوف" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 47) –ناح ابن الصحراء– الذي خسر الرّهان فيما ظفر الخلاء بحسنائه السماوية.

اكتفى آكا بسحر العين؛ بمعجزة النّظر كي يسلب تامدورت السائل الحيوي الأحمر؛ ويسحب منها نَفَسَ الحياة تاركا إياها "في الخباء تحتضر أصابها الشحوب، بعد الخروج وغاب الدم من البدن" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 46) تموت أنثى الخباء البدنية وتبعث خالدة على الحجر، في موت يمثل الحياة من منظور العود الأبدي، لأن "الخباء" المنحوت من الفعل "خبأ" لا يليق بالربة القمرية التي خلقت كي تُرى وتطلع، وهي بموتها البدني إنما "خرجت إلى الظلمات" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 47)شرطها الأول، كي تتألق في السماوات العلا وتلمع. ولا يغادر تامدورت سائل الحياة إلا ليتحول إلى الخامة الأصلية التي أوجد منها البدن؛ إلى الطين الأحمر الذي يمثل أيضا الهيئة النهائية التي سيصير عليها الجسد بعد الممات، ومن ثمّ هيئته الخالدة التي منها جُبِل وإليها يؤول.

11.بزوغ القمر:

يعني اسم "تامدّورت" (بلغة تامهق) (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس، 1992، صفحة 45)، الحياة؛ وبين حياة فانية ارتبطت بكائنة أودعت سرّ الألوهة في الخلق بالولادة، وبين حياة باقية في أيقونية تستنسخ الأصل الألوهي فتثبّته وتخلّده (الزين، 2015، صفحة 07). انتهى المصير بتامدورت إلى عناق الحجر. وربما كان في استخدام النظر أو العين [بالمفهوم السحري] الممتصة لنسغ الحياة، ما يراهن على القيمة البصرية للأيقونة المخترقة للمادة في إشارتها إلى الخفاء والباطن والمتعالي (الزين، 2015، صفحة 13)؛ "خطف المخلوقة الإلهية، وطار بها إلى المغارة المقدسة، عجن دم الأرض، كنز الأسلاف، تعويذة الحياة، بروث الماعز وقطع الجلّ، وأضاف إلى الخليط حليب النوق. اعتلى الحجارة وبدأ شعائر الخلق. بدأ بالقمة، بالرأس، بالحاجبين، بالعينين، بالشفتين، بالوجنتين. ثم الأنف والأطراف. وكان حريصا على أن ينطق بالكلمة الخفية، ويلقن الحجر السر. ردّد مع كل علامة حفرها في الجدار بالمخلوق الدموي "تامدورت. تامدورت. تامدورت..." (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 45). يترافق فعل الخلق والإنشاء هنا مع الكلمة بالقول؛ فلم يكن النقش واستعمال خامة التكوين الدموية كافيتين، وإنما تطلب الأمر –كما حدث للمرة الأولى في "الأصل"– أن يكون الفعل اللغوي جزء من التكوين مستوحيا قوة الخلق بالكلمة من المنظور التيولوجي في تحيين شعائري لزمن البدء؛ زمن الخلق؛ إذ نجد في القرآن قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُون﴾ (سورة يس، الآية: 82)

ويستعمل "آكا" قوة الاسم الشخصي الرمزية التي جرت عليها طقوس "التعميد"، المكرِّسة للتجدد والابتعاث في تعميد معبودته الحجرية والإعلان عن وجودها (سيرج، 1992، صفحة 436) واستحيائها، كما يسيطر عليها بتوخي تقاليد سحرية تماهي بين الشخص واسمه وتعتد التلفظ به امتلاكا له وسيطرة عليه (سيرج، 1992، صفحة 436). وإذا كان "بوخا" قد ارتكب أخطاء طقسية في بنائه بزوجته —كما سلف– فإننا نرى، بالمقابل، "آكا" يلتزم بوصايا الأسلاف بصرامة، كان مدعوما فيها بوحي سماوي يلقنه سرّ الخلق، زيادة على مباركة الحجر المقدس الذي رعى شعائر "الأيقنة"؛ "واصل النقش مكررا نفس التعاويذ الغامضة، رسل الأسلاف توسطوا مع المغارة وعقدوا له محاورة مع الحجر.." (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 45) .إذ في التكرار يكمن سر التحويل من "العماء" (chaos) إلى "الكون" (cosmos) (إلياد، أسطورة العود الأبدي، 1987، صفحة 28).

واصل آكا طقوس خلق البدن الصواني في المغارة طيلة ستة أيام "ولم يسترح إلا في اليوم السابع" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 45)؛ ضمن محاكاة وتكرار لفعل نموذجي، وكأنه موسى يمتثل لأمر رب اليهود "يهوه" القائل: "ستة أيام تعمل، وأما اليوم السابع فتستريح فيه" (فكري، سفر الخروج الإصحاح 34، صفحة 255) وأثناء انهماكه في العمل "كان يردّد الثالوث المقدّس (تامدّورت، تعالي، اسكني) بلا توقف، ويغرس أصبعه في المزيج السريّ ويقيم في الحجر الحميم بدنا يستعيره من أرض الصحراء ليرفعه بالعشق وقوة الخلق إلى السماء" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 45). وهو ما يستعيد

شارة "الثالوث المقدس" بحمولته الرمزية الدالة، أسطورياً، على الإلهة القمرية "تانيت" التي يرمز إليها بالمثلث (الكوني، التبر، 1992، صفحة 77). كما تستحضر كلمة "الأصبع" الخالقة؛ لوحة "خلق آدم" لمايكل أنجلو على سقف كنيسة السيستين بإيطاليا؛ التي تكاد فيها أصبع الربّ تلامس أصبع آدم بما يشير إلى تلقينه سرّ الخلق. وغير بعيد منها تحمل الأصبع المغروسة في المزيج الموسوم بالسرية، دلالة جنسية واضحة تقرن الأصبع بالجانب المذكر أو القضيب (phallus)، المغموس في نداوة الأنثوي الباطنية كي تنشِئ في حميمية الأحشاء بدنا جديدا، أو جنينا. يشي هذا التركيز على الأصبع بالانحياز إلى اعتبار فعل الخلق اختصاصا ذكوريا وليس أنثويا

كلّل خلق آكا بالنجاح "اعتلى الحجارة واقترب من البدن. رأى كيف يجري فيه البعث ويكتسب الحياة. لفحته الأنفاس الحارّة، وأحس بدبيب الدماء في عروق الجسد. تحسس الأطراف فوجدها حميمة تنبض بالحرارة والجمال والحياة. وضع أذنه على القلب فسمع الوجيب الذي ينطق، في إيقاعه الرتيب، بالعشق والحمد" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 46) فما كان من المبدع المدلّه بخلقه إلا أن "سقط على وجهه وركع في سجدة طويلة أمام المعبودة، كان خالقا سجد لمخلوق ابتدعه واستحق أن يعبد" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 46).

12. الأنثى القديمة والوليد الإلهي:

تجمع الربّة الحجرية بين وضعية الوليد الإلهي؛ وهي تتدرج عبر أطوار تخلّق الجنين المعلومة.. إلى أن تبلغ الاكتمال فتولد ربة كاملة، وبين وضعية العروس الإلهة التي تزفّ إلى حياة الحجر الزوجية أنثى خالدة لا يطالها قدر الفناء؛ إذ تتأبد في الصخر سرا ألوهيا؛ وكأن تامدورت، في هذا الطقس التأهيلي، تتحول إلى جنين لتولد ولادة ثانية وتبتعث كائنة تنتمي إلى عالم مقدس (إلياد، المقدّس والدّنيوي، 2018، صفحة 175)؛ "حبل اللّوح الحجري الجليل بالسرّ وحمل في أحشائه الجنين. استجاب للنداء وتقبّل البذرة في صلبه. ازدادت ملامح الوليد وضوحا وتبدت خطوط الوجه المدهش الذي يضيء الصحراء إذا تبدى وخرج من الحجاب. في المقلتين ومض القبس الخفيّ وتطلع إلى الأفق البعيد. الأنف ارتفع وعاند وكابر. الشفتان ارتسمتا وابتسمتا بغنج لا يليق بربة الحجارة، وكشفتا في انفراجة الإغواء عن أسنان تنافس النجوم وتقيم البرهان على انتماء حواء إلى السماء" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 46)؛ إنها تفاصيل الربّة القمرية أو الربة الحجرية —ما دام الحجر اسما آخر للقمر (السواح، ، لغز عشتار- الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، 2002، صفحة 89)- ربة الحياة والموت والجمال والجنس أيضا، تشي بذلك وقائع الطور الثالث والأخير من سيرة الخلق التي تقصاها آكا؛ عندما جاء تامدورت في خبائها، "استمر المدلّه يطوف حول الخباء. يردد التوسلات الفاجعة ويغني المواويل الحزينة. يرتّل البكائيات القديمة ويغالب الحزن بأصوات يقلد فيها ثغاء الماعز" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 43) ؛ فعدا عن شعيرة الطواف التي التزم بها كطقس ديني لا غنى عنه في عبادة تقديس الأحجار والمحجّات، يجري تقليد ثغاء الماعز؛ بما يثير رمزية "التّيس" في العبادات القديمة الدالة على الخصوبة والقوة الجنسية الشبقة، والتي ترى فيه رمز "الطاقة الإخصابية في الكائنات الحية والفاعلة أيضا في حياة الطبيعة" (السواح، عبادة الأحجار عند

الساميين وأصل الحجر الأسود ، 2021، صفحة 241) وليس بغريب، والحال هذه، أن يكون قد" أنجب منها ولدا وبنتا. يتبديان في ثياب البشر، كما يروق لهما أن يتخفيا في لباس الظلمات والخفاء أو يتنكرا في جلود الحيات أو أجساد الحيوانات" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 48)

13 . مقام الرفعة:

تتجلل مغارة الربة الحجرية برفعة الجبال، وتتسربل بما لذراها من تعال وسمو أهّلاها للحظوة بالقدسية في الأديان والأساطير؛ مثل جبل سيناء أو حوريب الذي شهد تكليم الإله لموسى (السواح، موسوعة تاريخ الأديان: الزرادشتية، المانوية، اليهودية ، المسيحية، 2018، صفحة 113)، وجبل النّور الذي كان الرسول محمد (ص) يرقاه كي ينقطع للتحنث والتعبد في الغار... وشبيه بذلك ما كان من أمر جبل الكرمل المقدس عند الكنعانين، وجبل ميرو (Meru) الذي يمثل مركز العالم في المعتقدات الهندية (إلياد، أسطورة العود الأبدي، 1987، صفحة 32) ولم يكن ما حيك من ميثولوجيات مقدسة حول جبل الأولمب أقل هيبة ..لأن "الجبل يندرج ضمن الصور المعبّرة عن صلة السماء بالأرض" (إلياد، المقدّس والدّنيوي، 2018، صفحة 40)، وهي التضاريس القدسية التي انتقاها الأسلاف المقدّسون لنقش إشاراتهم المستلهمة للنصوص الإلهية فاستأهلت أن تكون "الأبنية الإلهية" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 30)" وأن ترقى ثيولوجيا إلى مصاف "الصوامع الخرافية" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 30) وتمثل "حرم الأسلاف" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 31)الممنوع عن الوطء والدنس، والمقام الأفضل لاستقبال الربة الجديدة لتكون مباركة ومحصّنة، لذلك اقترن حفر صورتها على صفحة الصوان بأفعال الاعتلاء؛ "اعتلى الحجارة وبدأ شعائر الخلق" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 45)، و" اعتلى الحجارة واقترب من البدن" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 46)، و"بدنا يستعيره من أرض الصحراء ليرفعه بالعشق وقوة الخلق إلى السماء" (الكوني، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ، 1992، صفحة 45)لتعود إلى الأصل العليّ الذي منه جاءت.

تبدو المرأة [القمرية] في الحالين؛ البشرية والألوهية، مجرّد مستقبلة للفعل الشعائري الذي يؤديه الرجل في "البناء بها" أو"خلقها" –بوخا من جهة وآكا من الجهة الأخرى– في تماش واضح مع المبدأ السالب الذي يجمع بينها وبين القمر في الكون والطبيعة؛ مما أطلق عليه الصينيون القدامى اسم "الين" وهو يتصل بالعتم، والظل، والرطوبة، والغموض في مقابل المبدأ المذكّر الموجب "اليانغ" المطابق للنور، والحرارة، الجفاف، والوضوح (السواح، ، لغز عشتار– الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، 2002، صفحة 76)، ويؤكد على إلحاق طاقة الخلق بالمذكّر. واسم تامدورت نفسه– ومعناه الحياة بلغة تامهق– ليس سوى اسم حواء المخلوقة من ضلع الرجل الحيّ "فَأَوْقَعَ اللهُ سُبَاتًا عَلَى آدَمَ فَنَامَ، فَأَخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أَضْلَاعِهِ، وَمَلَأَ مَكَانَهَا لَحْمًا، وبَنَى الرَبُّ الإِلَهُ الضِّلْعَ الَّتِي أَخَذَهَا مِنْ آدَمَ امْرَأَةً، وَأَحْضَرَهَا إِلَى آدَمَ" (2012، صفحة 28)

وفيما بين إنزال الأنثى –القمرية على عرش التّراب، وحبسها في حرم الخباء، وبين رفعها جرما حجريا إلى السماء، يمتد غور زمني طويل أنزلت فيه "الأم" من مقام الألوهية الذي تمتعت به عند الأسلاف، وسجنت بين أسوار الشرط البدني الفاني. ولكأن آكّا بنقشه الحجري إنما يقوم بإعادة الشرائع إلى الحجر ضمن فعل تصحيح طقسي يرجع فيه للألواح الحجرية ما كان لها. فـ"في قلب الحجر ينبض بعبقرية قلب الموت الشغال، ويكتب بانجذاب سماوي أو جحيمي العالم المغلق للأبدية" (جابيس، 2015، صفحة 41) أين ينبسط المدى الأبيض للزمن الآيوني زاهدا في الكرونولوجيا، ومعتزلا حركيتها الحثيثة نحو النهاية.

خاتمة:

من الحجر انبلجت استعارة البقاء، وقُدحت من صلبه الصواني صور القوة والصلابة الصامدة في وجه المِحال، فتأهل– من بين العناصر– لحمل نواميس الغيب ودائعَ لا تبليها الأيام، واستحق الانتصاب في محاريب العبادة رمزا للمقدس. تحنو قساوة الجندل فيه بعطف على ذواكر أنهكها طراد القدمة والنسيان. لا يخلف إبراهيم الكوني منها وعدا ولا ينقض لها عهدا في صحاري سرده؛ حين يعيدها سيرتها الأولى في العصمة من التيه، وحفظ ميراث الأولين ووصاياهم، وهو يستحْيِي عبر نصبها من جديد، ديانة الطوارق الأمومية المدوزنة على إيقاع دورة حجر القمر.

المصادر والمراجع:

إلياد، مرسيا، (1987)، أسطورة العود الأبدي، ت. خياطة. نهاد، دار طلاس، دمشق.

إلياد، مرسيا، (2018)، المقدّس والدّنيوي، ت. أحمد آيت إحسان، دار الحوار، بيروت.

جابيس. إدموند، (2015)، كتاب الهوامش، ت. رجاء الطالبي، منشورات ضفاف والاختلاف ودار الأمان، ط01، الجزائر– بيروت– الرباط

السواح. فراس، (2017)، موسوعة تاريخ الأديان: الشعوب البدائية والعصر الحجري، دار التكوين، سورية.

السواح، فراس، (2002)، لغز عشتار– الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة، دار علاء الدين، دمشق.

السواح، فراس، (2021)، عبادة الأحجار عند الساميين وأصل الحجر الأسود، دار التكوين، دمشق، سورية.

ابن الكلبي، (1965)، كتاب الأصنام، ت. أحمد زكي باشا، القاهرة.

فيليب، سيرج، (1992)، الرموز في الفن- الأديان– الحياة، ت. عباس. عبد الهادي، دار دمشق، سورية.

الكوني، إبراهيم، (1992) ، الربة الحجرية؛ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس ،دار التنوير – تاسيلي، بيروت.

الكوني. إبراهيم، (2012) عدوس السرى: روح أمم في نزيف ذاكرة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

Caillois. Roger, (2016), pierres suivi d’autres textes, Gallimard, édition électronique a été réalisée le 27 mai 2016, Isako www.isako.com